الفصل الأول

التعليم فى مصر
قبيل العصر الأيوبى

obeikandl.com

obeikandl.com

أماكن التعليم - جامع عمرو - جامع ابن طولون - الجامع الأزهر - دار العلم - التعليم فى القصور - خزائن الكتب. ظهور المدارس - مدرسة الطرطوشى - مدرسة أبى الطاهر ابن عوف - مدرسة الحافظ السلفى - أهم العلوم التى كانت تدرس فى العصر الفاطمى.

عندما دخل الفاطميون مصر فى شعبان سنة ٣٥٨ هـ (٩٦٨ م) تحت قيادة جوهر الصقلى كان غالبية سكانها من أهل السنة على مذهبى مالك والشافعى. حقيقة إن التشيع كان معروفا بمصر قبل هذا التاريخ ولكن أصحابه كانوا قلة وغالبا ما تعرضوا لكثير من المضايقات والاضطهادات. من ذلك ما يذكره المقريزى من أن سودان كافور كانوا «يتعصبون على الشيعة»[١] ولذلك لم يكن لهم نفوذ أو تأثير فى الحياة العامة سوى بعض الاضطرابات التى كانت تحدث عندما يحتفلون ببعض مناسبتهم العقائدية.

ولا شك فى أن هذا السبب دعا جوهرا القائد إلى الإسراع فى بناء مدينة القاهرة لاتخاذها عاصمة للفاطميين بعيدا عن معاقل أهل السنة فى الفسطاط وغيرها. ويبدو أنه كان فى عجلة من أمره. إذ يقال، إنه بمجرد استسلام الإخشيديين له دخل «من الغد إلى مصر فى طبوله وبنوده وعليه ثوب ديباج مذهب ونزل بالمناخ وهو موضع القاهرة اليوم واختطها وحفر أساس القصر فى الليلة، وبات المصريون فى أمن فلما أصبحوا حضروا للتهنئة فوجدوه قد حفر أساس القصر فى الليل»[٢] وإذا كان هذا إحساس القادم الجديد الذى فتح مصر على رأس جيش من المغاربة حاملا مذهبا جديدا. فإنه بمجرد استيلائه على السلطة أعلن المذهب الشيعى مذهبا رسميا للدولة وصار العمل بمقتضاه فى القضاء والإفتاء وأنكر ما خالف ذلك من بقية المذاهب[٣].

وعلى هذا الأساس بدأ جوهر سياسة الدولة الجديدة بفرض مذهبها والعمل على نشره. ولم يكن ذلك بالأمر السهل لأن معتنقى المذهب الجديد من المصريين لم يكونوا إلا فئة قليلة بالنسبة لباقى المصريين الذين رأوا فى المذهب الشيعى خروجا عن معتقداتهم وآرائهم فى بعض جوانب الديانة.

ومن أجل أن يستوعب الداخلون فى هذا المذهب أحكامه ومعتقداته كان لزاما على الفاطميين نشر دعوة واسعة واتباع سياسة تعليمية تمكنهم من نشر مذهبهم. وكان أن بدأ نشاطهم يتغلغل إلى أماكن التعليم القائمة، حيث كانت تعقد حلقات العلم وخاصة فى جامعة عمرو وابن طولون.

---

(١) المقريزى: اتعاظ الحنفا ص ١٩٨ – الخطط جـ ٢ ص ٣٣٩.

(٢) أبو المحاسن: النجوم الزاهرة جـ ٤ ص ٣١ – انظر: العينى: عقد الجمان جـ ١٠ سنة ٣٥٨ – السيوطى: حسن المحاضرة جـ ٢ ص ١٣. المقريزى: اتعاظ الحنفا ص ١٥٨ – ١٦٢.

(٣) المقريزى: الخط جـ ٢ ص ٣٤٢.

جامع عمرو :

الواقع أن نصيب جامع عمرو من عناية الفاطميين كان عظيما جدا، وذلك بوصفه ركنًا من أركان التعليم، فضلا عن كونه ركنًا للصلاة والعبادة.

وقد جاء في سجل فاطمي بولاية مصر ما نصه «. . . وتقدم بحفظ الجامع العتيق وصونه وتوفيره على ما يليق به وتوقيره، وامنع من ابتذاله في غير ما جعل له ونصب له من الإعلان بذكره فيه وأهله ووفر تام العناية وشامل الرعاية على من به من الفقهاء والعلماء والمتصدرين والقراء وخصهم بالتكرمة على المبالغة في طلب العلوم»[1] وهذه العبارات تؤكد أن جامع عمرو كان معهدا تعليميا ضخما. وحظى طلاب العلم فيه برعاية الدولة سواء كانوا من السنيين أو الشيعة. وقد حظى هذا الجامع بالرعاية طوال عصر الفاطميين. ففي عهد العزيز بالله أمر وزيره يعقوب بن كلس بأن يعمل فيه فوارة كما جدد بياضه في سنة ٣٨٧ هـ[2]. (٩٧٧ م). وحظى الواردون إلى الجامع باهتمام العزيز الذى خصص مائدة وطعاما لمن يحضر إلى الجامع في رجب وشعبان ورمضان[3]. ومن أهم كتب الشيعة التي كانت تدرس بجامع عمرو «كتاب يعقوب بن كلس» الذى يشتمل على فقه الطائفة الإسماعيلية كما سمعه بنفسه عن المعز لدين الله وابنه العزيز[4].

أما الحاكم بأمر الله فقد صنع له تنورا من الفضة وحمل إليه الفرش والحصر السامانية وقناديل الذهب والفضة وعلق الستر على الأبواب[5]. كذلك عنى الحاكم بشئون العلم والمشتغلين به فزود جامع عمرو بمكتبة ضخمة نقلت إليه من خزائن القصر بلغت ألفا ومائتين وثمانية وتسعين مصحفا ما بين ختمات وربعات، فيها ما هو مكتوب كله بالذهب

---

(١) القلقشندى: صبح الأعشى جـ ١٠ ص ٤٢٣، ٤٢٤ – خطاب عطية: التعليم في مصر ص ١٠١ لم يذكر القلقشندى تاريخ إصدار هذا السجل ولا اسم الخليفة الذى صدر في عهده ولكن يبدو أنه صادر عن الخليفة الظافر بأمر الله أبى منصور إسماعيل إلى عباس بن يحيى بن تميم الصنهاجي الذى تولى الوزارة بعد مقتل ابن السلار. والذى يدعو إلى الاعتقاد في ذلك ما جاء في مقدمة السجل بأنه صادر إلى أبى الفضائل عباس الظافرى ثم يذكر سبب تزكيته لتولى هذا المنصب «وقد عرف من مواقفك المشهودة ومقاماتك المحمودة ما كان منك في نوبة مصال وجموع ضلاله».

انظر: القلقشندى: صبح الأعشى جـ ١٠ ص ٤١٩ – ٤٢٤.

(٢) المقريزى: الخطط جـ ٢ ص ٢٤٩

(٣) المقريزى: الخطط جـ ٢ ص ٢٨٤

(٤) المقريزى: الخطط جـ ٢ ص ٣٤٠.

(٥) العينى: عقد الجمان جـ ١٠ سنة ٤٠٠ هـ – السيوطى: حسن المحاضرة جـ ٢ ص ١٥١ – خطاب عطيه: التعليم في مصر ص ١٠٢.

ومكن الناس من القراءة فيها[1]، كما عين الرواتب لمن يأوى إلى المساجد من الفقهاء والقراء والغرباء[2].

ومع ذلك فإن علوم الشيعة لم تلق الإقبال الذى كان منتظرا لها فى جامع عمرو بعد أن ظل سنين طويلة معقلا لتدريس فقه المذاهب السنية حيث درس به كثير من علماء هذه المذاهب وعلى رأسهم الإمام الشافعي نفسه. لذلك أقبل الطابة فيه على حلقات الفقهاء السنيين دون غيرهم. ومن ذلك ما ذكره السيوطى من «أن أبا النعالى إمام المالكية بمصر المتوفى سنة ٣٨٠ هـ (٩٩٠م) كانت تدور حلقته فى الجامع على سبعة عشر عمودا لكثرة من يحضرها[3]. ومهما يكن فى كلام السيوطى من مبالغة فإنه يكفى أن عبارته السابقة تؤكد أن الدراسات الخاصة بمذهب أهل السنة كانت لاتزال قائمة ومزدهرة فى العصر الفاطمى، كما يفهم من كلامه أيضا أن كثيرًا من الفقهاء السنيين قاموا بالتدريس فى جامع عمرو فى ذلك العصر[4].

جامع ابن طولون :

أما جامع ابن طولون فقد حظى أيضا باهتمام الفاطميين، فقد حدث فى سنة ٣٧٦ هـ (٩٨٦ م) أن احترقت بعض أجزائه فاستمر الجامع مهملا حتى أمر العزيز بالله ببناء فوارة[5] عوضا عن التى احترقت وترميم باقى الأجزاء التى تأثرت بالحريق[6]. وفى زمن الحاكم بأمر الله زود الجامع بثمانمائة وأربعة عشر مصحفا[7]. وهذا ما يدعو إلى الاعتقاد أنه كانت بهذا الجامع بعض الدروس ولكنها لم تكن فى حجم ولا أهمية الدراسات التى كانت تعقد فى جامع عمرو.

ولذلك نجد أنه لم يكن لهذا الجامع ذكر كثير فى المصادر التاريخية خصوصا فى دولتى الفاطميين والأيوبيين. ولم يلعب جامع ابن طولون دوره فى الحياة العلمية إلا فى زمن المماليك. وهذا ما سنتناوله بالدراسة والبحث بعد ذلك.

وهكذا اضطر الفاطميون فى سبيل نشر مذهبهم إلى إتباع طريقتين، الأولى هى الإغراء والترغيب بقصر شغل المناصب على معتنقى المذهب الشيعى، والأخرى التهديد والوعيد. من

---

(١) المقريزى: الخطط جـ ٢ ص ٢٤٩ - السيوطى: حسن المحاضرة جـ ٢ ص ١٥١.

(٢) العينى: عقد الجمان جـ ١٠ سنة ٤٠٠ هـ.

(٣) السيوطى: حسن المحاضرة جـ ١ ص ٢١٢، ٢١٣ - خطاب عطية: التعليم فى مصر ص ١٠٥.

(٤) انظر السيوطى: حسن المحاضرة جـ ١ ص ١٨٨ -- ٢١٣ - ابن خلكان: وفيات الأعيان جـ ٢ ص ٣٩٠.

(٥) فوارة بمعنى فسقية وفى القاموس فوراة الماء: منبعه. انظر ابن منظور: لسان العرب جـ ٦. مادة فور.

(٦) المقريزى: الخطط جـ ٢ ص ٢٦٦، ٢٦٧.

(٧) المقريزى: الخطط جـ ٢ ص ٢٦٦.

ذلك ما ذكره المقريزى من أنه حدث فى سنة ٣٨١ هـ (٩٩١م) أن «ضرب رجل بمصر وطيف به المدينة من أجل أنه وجد عنده كتاب الموطأ لمالك بن أنس[١] كما قبض على ثلاثة عشر رجلا وضربوا وشهروا وحبسوا ثلاثة أيام لأنهم صلوا صلاة الضحى[٢].

الجامع الأزهر:

على أن جوهرا لم يقنع بما فى مصر من جوامع قديمة كانت منذ تأسيسها مراكز للمذهب السنى، وإنما بدأ بإنشاء جامع جديد ليكون مقرا ومركزا لتعليم فقه المذهب الشيعى. وكان ذلك سنة ٣٥٩ هـ (٩٧٠ م) عندما وضع جوهر أساس الجامع الأزهر الذى تم بناؤه فى شهر رمضان سنة ٣٦١ هـ[٣] (٩٧٢ م).

وبذلك اكتملت أركان القاهرة وصار الأزهر مركزا لعلماء الشيعة الذين سبقوا المعز فى الحضور إلى مصر أو الذين حضروا فى صحبته. وسرعان ما بدأ استخدام الأزهر فى المهمة التى أنشئ من أجلها. ففى صفر سنة ٣٦٥ هـ (٦٧٥ م) جلس به القاضى على بن النعمان وأملى مختصر أبيه فى الفقه عن آل البيت، ويعرف هذا المختصر «بالاقتصار»، وحضر هذا المجلس جمع عظيم من الناس أثبت أسماءهم عنده[٤]. ومما لاشك فيه أن الغرض الأساسى من بناء الجامع الأزهر هو أن يكون معهدا لفئة معينة من الطلاب الذين يقومون بدراسة الفقه الشيعى وفلسفته حتى إذا أتموا دراستهم قاموا بالدور المطلوب منهم وهو نشر الدعوة الشيعية ومعتقداتها بين الناس. أى إنه كان مركزا لتدريب دعاة المذهب وتخرجهم.

ولكنه لم يلبث أن تطور ليصبح جامعة من أهم الجامعات الإسلامية التى يقصدها المعلمون والمتعلمون وتم ذلك التطور بفضل جهود الوزير يعقوب بن كلس الذى بدأ أولى الخطوات ليجعل منه معهدا دراسيا واسع النشاط. ذلك أن الوزير يعقوب بن كلس نفسه كان من كبار علماء المذهب الشيعى وكان يجلس لقراءة كتب الفقه وخاصة ما كتبه عن المعز والعزيز. فرتب العزيز

---

(١) المقريزى: الخطط جـ ٢ ص ٣٤٠ أنظر أحمد أمين: ضحى الإسلام جـ ٢ ص ٥٦.

(٢) المقريزى: الخطط جـ ٢ ص ٣٤٠.

(٣) المقريزى: الخطط جـ ٢ ص ٢٦٢ – أبو المحاسن: النجوم الزاهرة جـ ٤ ص ٣٢. ابن أيبك الدوادارى: كنز الدرر جـ ٨ ص ١٢١ – السيوطى: حسن المحاضرة جـ ٢ ص ١٥٤. حسن عبد الوهاب: تاريخ المساجد الأثرية ص ٤٨.

Creswell: Muslim Architecture. Part I. P. 21.

(٤) المقريزى: الخطط جـ ٢ ص ٣٤٠ – محمد عنان: تاريخ الجامع الأزهر ص ٤١ – خطاب عطية: التعليم فى مصر ص ١١٢ حسن عبد الوهاب: تاريخ المساجد الأثرية ص ٥٢.

بالله خمسة وثلاثين فقيها لملازمة ابن كلس فى مجالسه العلمية للتتلمذ على يديه ورتب لهم الأرزاق الشهرية التى تكفيهم وأمر ببناء دار لهم بجانب الجامع الأزهر فإذا كان يوم الجمعة تحلقوا فيه بعد صلاة العصر وكان لهم من مال الوزير أيضا صلة فى كل سنة[1] وكانت هذه أول دراسة منتظمة بالأزهر ولا أدل على الاهتمام بهم من أنه تم تخصيص دار لإقامتهم وصرف الأرزاق المنتظمة لهم بل وصل اهتمام العزيز بهم أن خلع عليهم يوم الفطر وحملهم على البغال[2] احتراما وتقديرا لهم.

على أن الأزهر أخذ يتخلص نوعا ما من النزعة المذهبية بعد افتتاح جامع الحاكم الذى وضع أساسه العزيز بالله بإشراف وزيره ابن كلس لنقل الحلقات العلمية التى كانت تقام بالأزهر[3] إليه. فلما مات العزيز بالله دون إتمامه أكمله الحاكم ونسب إليه وأذن لمن يبيت بالأزهر أن يمضى إليه[4].

ثم كان أن أنشأ الحاكم دار العلم وتحول معظم العلماء إليها مما أثر فى المركز العلمى للجامع الأزهر. ولكن يبدو أن تحول العلماء عنه كان سببا فى تجرده من الصبغة المذهبية التى لازمته منذ إنشائه، وأصبحت الدراسة فيه أكثر تحررا دون التقيد المطلق بالقيود المذهبية[5]. وساعد على ذلك ما أظهره الحاكم من التسامح فى أول سنى حكمه حتى درس بالأزهر بعض علماء السنة فى علوم الفلسفة والمنطق والطب والرياضيات ولكن فى حدود ضيقة[6]. ومع ذلك فإن إنشاء دار العلم لم يؤد بأية حال إلى إهمال الجامع الأزهر. بل إن الحاكم رتب عليه بعض الأوقاف التى تغل كل سنة ألفا وسبعة وستين دينارا للصرف منها على عمارته وشراء ما يلزمه من فرش وحصر وما يستخدم فى نظافته وأرزاق من به من الموظفين[7].

---

(١) المقريزى: الخطط جـ ٢ ص ٣٤٠ – انظر: ابن أيبك الدوادارى: كنز الدرر جـ ٨ ص ١٢١.
خطاب عطية: التعليم فى مصر ص ١١٣، ١١٤ – حسن عبد الوهاب: تاريخ المساجد الأثرية ص ٥٢.
Creswell: Muslim Architecture. Part I. pp. 36-37.

(٢) المقريزى: الخطط جـ ٢ ص ٣٤٠.

(٣) المقريزى: الخطط جـ ٢ ص ٣٤٠ – انظر: ابن أيبك الدوادارى: كنز الدرر جـ ٨ ص ١٢١.
خطاب عطية: التعليم فى مصر ص ١١٣، ١١٤ – حسن عبد الوهاب: تاريخ المساجد الأثرية ص ٥٢
Creswell: Muslim Architecture. Part I. pp. 36-37.

(٤) المقريزى: الخطط جـ ٢ ص ٢٧٦.

(٥) محمد عنان: تاريخ الجامع الأزهر ص ٥٦.

(٦) خطاب عطية: التعليم فى مصر ص ١١٥

(٧) المقريزى: الخطط جـ ٢ ص ٢٧٤.

دار العلم :

تولى الحاكم بأمر الله الخلافة فى الثامن والعشرين من شهر رمضان سنة ٣٨٦ هـ (٩٩٦ م). وكان منذ صغره يشتغل بالآداب والدروس والنظر فى دقائق الأمور مثل النجوم والأرصاد والكيمياء والعزائم والطلسمات وسائر علوم الرياضيات. ولكنه كان شغوفا بعلم النجوم، عمل رصدا واتخذ بيتا فى المقطم ينقطع فيه عن الناس لإجراء دراساته وتأملاته[١].

ورجل بهذه الصفات لابد أن يهتم بالعلم والعلماء، ويعمل على توفير الراحة للباحثين والمشتغلين بالعلم. ومن أجل ذلك قام الحاكم بإنشاء دار الحكمة التى فتحت أبوابها فى جمادى الآخرة سنة خمس وتسعين وثلاثمائة (١٠٠٥ م) وجلس فيها القراء والفقهاء والمنجمون والنحاة وأصحاب اللغة والأطباء، وجمع فيها من الكتب فى سائر العلوم ما لم ير مثله مجتمعا[٢]. وبعبارة أخرى فإنه جعل منها جامعة شاملة لكافة العلوم المعروفة فى عصره. وأظهر الحاكم تسامحا واعتدالا فى أول حكمه إذ جعل التعليم فى دار الحكمة حرا، لكل فرد أن يختار من العلوم ما يشاء، من ذلك ما يذكره العينى من أنه نقل إليها كثيرا من الكتب التى تتعلق بالسنة[٣]. وهكذا سمح بالاشتغال لفقهاء المذاهب السنية جنبا إلى جانب مع فقهاء الشيعة. ولعل سماح الحاكم بهذا القدر من الحرية جاء اعتقادا منه أنه طالما كان التعليم حرا والمناقشة والمناظرة مكفولة للجميع دون الخوف من عقاب السلطة، فإن هذا من شأنه أن يؤدى إلى اعتناق بعض علماء السنة لمبادئ المذهب الشيعى مما يساعد بدوره على دخول كثيرين من عامة المصريين فى ذلك المذهب أسوة بعلمائهم.

كان لتسمية هذه الدار بدار العلم أو بدار الحكمة مغزى يدل على الاتجاه الفلسفى الحر الذى اختاره لهذا المعهد[٤].

وقد قسمت هذه الدار إلى عدة أقسام أى قاعات للمحاضرات حسب العلوم التى تدرس أو تبحث فيها من طب وتنجيم وفلك وفلسفة، عدا علوم الفقه على مذاهبه وعلوم اللغة

---

(١) المقريزى: الخطط جـ ٢ ص ٢٨٨. ابن أبيك الدوادارى: كنز الدرر جـ ٦ ص ٢٥٦؛ ٢٥٧.

(٢) المقريزى: الخطط جـ ٢ ص ٣٤١. ابن سعيد: المغرب: حلى حضرة القاهرة ص ٦٠.

Lane – Pool: The Story of Cairo p. 142.

الترجمة العربية ص ١٢٦.

(٣) العينى: عقد الجمان جـ ١٠ سنة ٤٠٠ هـ – غنيمه: تاريخ الجامعات ص ٥٨. ٥٩. محمد عنان تاريخ الجامع الأزهر ص ٥٢.

(٤) محمد عنان: تاريخ الجامع الأزهر ص ٥١.

والقراءات والحديث وغيرها. كذلك تم تزويدها بمكتبة ضخمة كانت خير عون للباحثين والدراسين بها مع توفير الأموال اللازمة للصرف منها على أرباب الوظائف والمشتغلين بالعلم، فأجرى على من فيها من الخدام فضلا عن المعلمين والمتعلمين الأرزاق السنية، ووفر بها ما يحتاج إليه رجال العلم من الحبر والأقلام والمحابر والورق[1] لمن يريد القراءة والإطلاع أو لمن يريد النسخ والنقل.

ونتيجة طبيعية لهذا التسامح الدينى من ناحية والرعاية المادية لأهل العلم من ناحية أخرى فضلا عن تهيئة الجو العلمى الملائم للجميع هرع إلى دار العلم العلماء والطلاب من كافة المذاهب وسائر البلاد.

ومن علماء السنة الذين اشتغلوا بالتدريس فى دار الحكمة الحافظ أبو محمد عبد الغنى، وكان عالما من علماء الحديث حافظا له ومن مؤلفاته «مشتبه النسبة» وكتاب المؤتلف والمختلف. وكذلك أبو أسامة جناده محمد اللغوى، وكان يتولى التدريس بجامع عمرو وأبو الحسن بن سليمان الأنطاكى النحوى[2].

كذلك انتقل إلى دار العلم داعى الدعاة، وكانت وظيفته القيام بقراءة كتب الفقه الخاصة بالشيعة وأصول العقيدة وأخذ العهود على من ينتقل إلى مذهبه[3]. وأدى شغف الخليفة الحاكم بأمر الله بالتنجيم والكيمياء بالذات إلى أنه فتح الباب أمام الباحثين فى هذه العلوم من فلاسفة وأطباء ومنجمين. وفى ظل رعايته استطاعت دار الحكمة أن تنمو بسرعة بحيث لم يمض سوى قليل حتى ازدهرت وسار ذكرها فى الآفاق وهرع إليها الطلاب من سائر الأقطار، وتبوأت مركز الزعامة فى الدراسات العلمية والفقهية[4].

---

(١) المقريزى: الخطط جـ ٢ ص ٢٤١ - ابن سعيد: المغرب: حلى حضرة القاهرة ص ٦٠. أحمد شلبى: تاريخ التربية ص ١٥٦. محمد عنان: تاريخ الجامع الأزهر ص ٥٢. خطاب عطية: التعليم فى مصر ص ١٥٦، ١٥٧.

(٢) ابن خلكان: وفيات الأعيان جـ ٢ ص ٣٩٠. الذهبى: تذكرة الحفاظ جـ ٣ ط ١٣ ص ١٠٤٧، ١٠٤٩. ابن العماد: شذرات الذهب جـ ٣ ص ١٨٨. أبو المحاسن: النجوم الزاهرة جـ ٤ ص ٢٢٢. خطاب عطية: التعليم فى مصر ص ١٦١، ١٦٢ – غنيمة: تاريخ الجامعات ص ٥٩.

Encyclopaedia of Islam. Vol. 3 Part I. p. 353.

(٣) غنيمة: تاريخ الجامعات ص ٥٩ – خطاب عطية: التعليم فى مصر ص ١٦٠، ١٦١.

(٤) محمد عنان: تاريخ الجامع الأزهر ص ٥٤.

وكان الحاكم يقرب العلماء من شتى الفروع مثل على بن رضوان الذى عينه الحاكم رئيسا على سائر المتطببين[1] والعالم ابن الهيثم الذى حضر إلى القاهرة واشتغل فى الجامع الأزهر. وكان ابن الهيثم نابغا فى علم الهندسة والمنطق وغير ذلك من سائر العلوم. وسمع الحاكم عنه أنه يقول بمشروع لو نفذه على نيل مصر لأمنها شر الفيضانات وعم به النفع، وفعلا استدعاه الحاكم وأرسله إلى أعلى النيل مع جماعة الصناع وعندما رأى ابن الهيثم كثرة تكاليف المشروع واستحالة القيام به خاف أن يقول ذلك للحاكم حفاظا على حياته من بطشه فلم يجد طريقا إلى الخروج من مأزقه إلا إظهار الجنون والخيال[2].

وممن حظى برعاية الحاكم وعطفه أبو الحسن على بن أبى سعيد صاحب كتاب الزيج الحاكمى، وكان بارعا فى علم النجوم شديد العناية بعلم الرصد وكان يدخل على الحاكم فيكرمه[3].

ولكن عرف عن الحاكم تقلب أخلاقه وأحواله وكثرة تردده وازدواج شخصيته بين شجاعة وإقدام، وجبن وإحجام، ومحبة للعلم وانتقام من العلماء[4]، فنجده بعد ما أبداه من التسامح مع أهل السنة والسماح لهم بالتعليم وإقامة المحاضرات ومجالس الإملاء بدار العلم، سرعان ما عاد إلى التشدد والتعصب للمذهب الشيعى، فأمر بقتل العلماء السنيين الموجودين بدار الحكمة، فقتل أبا أسامة والأنطاكى وخلقا كثيرا من أهل السنة[5]. أما الحافظ عبد الغنى فقد اختفى حتى لا يتعرض لنفس المصير. وكان لهذا التصرف أثره السيئ على أهل السنة وزعزعة ثقتهم

---

(١) ابن أبى أصيبعه: طبقات الأطباء جـ ٢ ص ١٠١.

(٢) القفطى: تاريخ الحكماء ص ١٦٦، ١٦٧. أحمد أمين. ظهر الإسلام جـ ٢ ص ١٩٣، ١٩٤. حسن إبراهيم: تاريخ الإسلام جـ ٣ ص ٥٧٩.

(٣) العينى: عقد الجمان جـ ١٠ سنة ٣٩٩ هـ أبو المحاسن: النجوم الزاهرة جـ ٤ ص ١٧٩. السيوطى: حسن المحاضرة جـ ١ ص ٢٥٨ – ابن كثير: البداية والنهاية جـ ١١ ص ٣٤١.

(٤) المقريزى: الخطط جـ ٢ ص ٢٢٨ – العينى. عقد الجمان جـ ١٠ سنة ٣٨٦.

أبو المحاسن: النجوم الزاهرة جـ ٤ ص ١٧٦، ١٧٨ – القفطى تاريخ الحكماء ص ١٦٦. السيوطى: حسن المحاضرة جـ ٢ ص ١٥ – ابن كثير: البداية والنهاية جـ ١٢ ص ٩. ابن خلكان: وفيات الأعيان جـ ٤ ص ٣٧٩.

(٥) ابن خلكان: وفيات الأعيان جـ ٢ ص ٣٩٠ – العينى: عقد الجمان جـ ١٠ سنة ٤٠٠ هـ أبو المحاسن: النجوم الزاهرة جـ ٤ ص ٢٢٢ – ابن العماد: شذرات الذهب جـ ٣ ص ١٨٩. خطاب عطيه: التعليم فى مصر ص ١٦٢ غنيمه: تاريخ الجامعات ص ٦٠.

فى دار الحكمة وفى الحاكم نفسه الذى كان قد أظهر ميلا للمذهب المالكى وسمح للناس بصلاة الضحى والتراويح وأعاد الأذان إلى سابق عهده، فرجع فى كل ذلك وعاد إلى سيرته الأولى «وأعيدت قراءة المجالس بالقصر على ما كانت»[1].

ومع ذلك فقد استمرت دار الحكمة فى أداء رسالتها العلمية إلى أن اضطربت شئونها فى عهد الخليفة المستنصر وانتهى الأمر إلى أن أغلقت فى أوائل القرن السادس الهجرى (الحادى عشر الميلادى) أيام الخليفة الآمر بأحكام الله إذ أغلقها الأفضل بن أمير الجيوش بسبب اجتماع الناس فيها و الخوض فى المذاهب خوفا من الاجتماع على المذهب النزارى، ثم عادت وفتحت أبوابها فى عهد الخليفة الآمر ووزيره مأمون البطائحى، واقتصر التدريس فيها على القرآن الكريم[2].

التعليم فى القصور :

أقام الفاطميون عدة مدارس بقصورهم اتخذت لها طابعا خاصا وتلامذة من نوعية معينة حيث يلتحق بها أولاد علية القوم وسراتهم. ويسير المؤدبون فى تثقيف هؤلاء الصبيان وتعليمهم على منهاج خاص يرمى إلى إعدادهم لخدمة الخلفاء وشغل المناصب الرئيسية فى دولة الخلافة[3].

أما المجالس التى كان يعقدها الخلفاء فى القصور فكانت للبحث والمناظرة وكان يجتمع إليها الأدباء والشعراء «وساعد على ازدهار هذه المجالس شغف المصريين بالعلم وإقبال الأدباء على المناظرة طمعا فى منح الخلفاء والأمراء والوزراء ونيل الحظوة عندهم»[4].

ولكن الحقيقة أن هذه المجالس إنما كانت تعقد بالدرجة الأولى لشرح الفقه الشيعى والدعوة له وترغيب الناس فيه. ويبدو أن هذه المجالس قد نجحت إلى حد كبير فى هذا الهدف. يذكر أنه فى شهر ربيع الأول سنة ٣٨٥ هـ (٩٩٥ م) جلس القاضى محمد بن النعمان على كرسى بالقصر فى القاهرة لقراءة علوم أهل البيت على الرسم المتقدم له ولأخيه بمصر ولأبيه بالمغرب فمات فى الزحمة أحد عشر رجلا[5]. وهذا يدل على أن كثيرا من المصريين أقبلوا على اعتناق

---

(١) المقريزى: الخطط جـ ٢ ص ٣٤١.

(٢) القلقشندى: صبح الأعشى جـ ٣ ص ٣٦٦ - محمد عنان: تاريخ الجامع الأزهر ص ٥٨. أحمد شلبى تاريخ التربية ص ١٥٧ – خطاب عطية: التعليم فى مصر ص ١٥٤، ١٥٥. غنيمة: تاريخ الجامعات ص ٦٠.

(٣) أحمد شلبى: تاريخ التربية فى الإسلام ص ٤٩.

(٤) خطاب عطية: التعليم فى مصر ص ١٧٧.

(٥) المقريزى: الخطط جـ ٢ ص ٣٤٠.

هذا المذهب يؤيد ذلك ما جاء بسجل للدعوة والمشايعة لها والموافقة على مذهبها «واتل مجالس الحكم التى تخرج إليك فى الحضر على المؤمنين والمؤمنات والمستجيبين والمستجيبات فى قصور الخلافة الزاهرة»[1].

على أن هذه المجالس لم تقتصر على قصور الخلفاء فقط، بل نجد كثيرا من الوزراء الفاطميين يقيمون هذه المجالس فى قصورهم، فالوزير يعقوب من كلس «رتب فى داره العلماء من الأدباء والشعراء والفقهاء والمتكلمين وأجرى لجميعهم الأرزاق وألف كتابا فى الفقه ونصب له مجلسا وهو يوم الثلاثاء يجتمع فيه الفقهاء وجماعة من المتكلمين وأهل الجدل، وتجرى بينهم المناظرات»[2] ويبدو أن هذا المجلس كان خاصا بطبقة المتعلمين والمثقفين فقط. إذ كان يعقوب بن كلس يعقد مجلسا آخر فى يوم الجمعة ليقرأ مصنفاته على الناس بنفسه بحضور الفقهاء والقضاة ووجوه أهل العلم فإذا ما انتهى المجلس قام الشعراء لإنشاد مدائحهم فيه، كما أنه تكفل بإطعام طوائف الفقهاء فى شهر رمضان[3]. ومن الطبيعى أن يكون توفير الطعام فى شهر رمضان لهم نتيجة ملازمتهم له وعقد الندوات يوميا طوال الشهر. كذلك كان هذا الوزير النابه وراء النهضة العلمية التى شهدتها مصر فى عهد العزيز بالله، وهو الخليفة الذى كان يقدر وزيره حق قدره حتى إنه عند وفاة ابن كلس فى الخامس من ذى الحجة سنة ٣٨٠ هـ (٩٩٠م) بلغ من حزن العزيز عليه أنه أمر بغلق الدواوين أياما من بعده وحضر جنازته وصلى عليه بنفسه[4].

ومثل ذلك يقال عن مجالس الوزير طلائع بن رزيك الذى تولى الوزارة للخليفة الفائز سنة ٥٤٩ هـ (١١٥٤م) وكان هذا الوزير شيعيا متعصبا، ولكنه محب للأدب والعلم والعلماء، صنف كتابا سماه الاعتماد فى الرد على أهل العناد. وهو يتضمن إمامة على بن أبى طالب والكلام على الأحاديث الواردة فى ذلك، جمع له الفقهاء وناظرهم عليه[5] وله مجلس فى الليل يحضره أهل العلم للمناقشة فى المسائل العلمية وتدوين ما يقوله من شعر. وكان العلماء يفدون إليه من

---

(١) القلقشندى: صبح الأعشى جـ ١٠ ص ٤٣٧.

(٢) المقريزى: الخطط جـ ٢ ص ٣٤٠.

انظر أبو المحاسن: النجوم الزاهرة جـ ٤ ص ١٥٨.

(٣) المقريزى: الخطط جـ ٢ ص ٣٤٠.

(٤) العينى: عقد الجمان جـ ١٠ سنة ٣٨٠ هـ ابن أيبك الدوادارى: كنز الدرر جـ ٦ ص ٢٢٥. أبو المحاسن. النجوم الزاهرة جـ ٤ ص ١٥٨ – ابن كثير: البداية والنهاية جـ ١١ ص ٣٠٨.

(٥) المقريزى: الخطط جـ ٢ ص ٢٩٣ – أبو المحاسن: النجوم الزاهرة جـ ٥ ص ٣١١.

سائر البلاد فلا يخيب أمل من قصده منهم. ويذكر ابن خلكان أنه وقف على ديوان شعره[1]. كما يورد المقريزى بعضا منه وقد بلغ من اهتمامه بتعليم الصبيان أنه كان يرسل فى كل عام إلى أهل مكة والمدينة ألواح الصبيان التى يكتب فيها والأقلام والمداد[2].

خزائن الكتب :

ولع الخلفاء الفاطميون باقتناء الكتب ولعا شديدا. وخاصة أن معظمهم كان له اهتمام كبير بالعلوم لاسيما العلوم الدينية. ذلك أنهم دعاة مذهب جديد. والوسيلة إلى نشره هى المناقشة والمناظرة والإقناع بأحقية الفاطميين فى الخلافة. هذا فضلا عما كانوا يدخلونه من نظريات وأصول جديدة فى الفقه لتأييد الدعوة وتنظيمها بالإضافة إلى اهتماماتهم الشخصية بعلوم النجوم والسحر والفلك والفلسفة وغيرها. ولاشك أن الكتب هى الوسيلة الفعالة والأداة القوية لنشر علوم مذهبهم ودراسته بين الناس عامة وطلاب العلم خاصة بالإضافة إلى أنها دليل واضح على مقدار تقدم العلم والتعليم فى العصر وانتشار الآداب والعلوم[3].

وقد بدأت خزائن الكتب الفاطمية فى النمو منذ وصول المعز لدين الله الفاطمى إلى القاهرة حيث أحضر معه الكثير من هذه الكتب. ويحكى عن المعز أن رجلا حمل إليه مصحفا يقال إنه كان ليحيى بن خالد البرمكى ووجده معجبا به. فدعا المعز بإحضار مصحف يفوقه خطا وإذهابًا وتجليدا وقال «هذا خط المنصور وإذهابه وتجليده بيده»[4].

وقد تركزت هذه الكتب بالخزائن الموجودة بالقصور وخزائن دار العلم والمارستان كذلك وجد بعضها بالمساجد. وكان اهتمام الخلفاء الفاطميين بالكتب يفوق الوصف، لدرجة أنهم كانوا يقتنون من الكتاب الواحد العدد الكثير من النسخ. من ذلك ما يقال من أنه ذكر فى أحد مجالس العزيز بالله كتاب «العين للخليل بن أحمد فأمر العزيز خازن دفاتره فأخرج من إحدى خزائنه نيفا وثلاثين نسخة من كتاب العين ومنها نسخة بخط الخليل بن أحمد»[5]. كذلك كانت تشتمل الخزائن على نسخ كثيرة من تاريخ الطبرى منها نسخة بخطه، ومائة نسخة من كتاب الجمهرة لابن دريد. وإلى جانب ذلك فقد كانت خزائن الكتب تحوى كتب السنة والفقه

---

(١) ابن خلكان: وفيات الأديان جـ ٢ ص ٢٠٨. ابن سعيد: المغرب: حلى حضرة القاهرة ص ٢١٨ حسن عبد الوهاب تاريخ المساجد الأثرية ص ٩٧.

(٢) المقريزى: الخطط جـ ٢ ص ٢٩٣.

(٣) خطاب عطيه: التعليم فى مصر ص ١٨٨

(٤) المقريزى. اتعاظ الحنفا ص ٢٠٢.

(٥) المقريزى: الخطط جـ ١ ص ٤٠٧ - العينى: السيف المهند ص ١٩٧

على سائر المذاهب والنحو واللغة وكتب الحديث والتاريخ وسير الملوك والنجامة والروحانيات والكيمياء حتى كتب السحر والطلمسات. وبلغ عدد خزائن الكتب الموجودة بالقصر الكبير أربعين خزانة.

وكان الخلفاء كثيرى التردد على خزائن الكتب وخاصة خزانة المارستان فكان الخليفة منهم يتوجه إليها راكبا ثم يترجل على دكة منصوبة هناك ويجلس عليها ثم يحضر إليه متولى أمور المكتبة «فيحضر إليه المصاحف بالخطوط المنسوبة وغير ذلك مما يقترحه من الكتب فإن عن له أخذ شئ منها أخذه ثم يعيده»[1]. وتحتوى هذه الخزانة على عدة رفوف فى دور ذلك المجلس العظيم، والرفوف مقطعة بحواجز وعلى كل حاجز باب يقفل عليه بمفصلات وقفل[2]. مما يؤكد حرصهم على مقتنياتهم ضد الضياع أو السرقة.

وقد حظيت هذه الكتب بالعناية والاهتمام، وعمل الفهارس الخاصة بها وترميم ما قد يتلف من أغلفتها وصفحاتها. وذكر ابن السنبدى الذى تولى مهمة ترميم الكتب وفهرستها فى إحدى المرات أنه رأى من كتب النجوم والفلسفة خاصة ستة آلاف وخمسمائة جزء[3].

على أن الكتب الفاطمية تعرضت للنهب والسرقة فى وقت الشدة العظمى زمن الخليفة المستنصر فضلا عما بيع منها. إذ حدث فى سنة إحدى وستين وأربعمائة وما بعدها (١٠٦٨م) أن تعرضت هذه الكتب لحملة من التبديد والتدمير بسبب سوء الحالة الاقتصادية حتى أن عبيد الفاطميين وإماءهم كانوا يأخذون جلود هذه الكتب «برسم عمل ما يلبسونه فى أرجلهم» [4] فأتوا على الكثير من الكتب النادرة وما بقى منها أخذ الأتراك معظمه مقابل أرزاقهم المتأخرة.

ولم يكن اهتمام الوزراء الفاطميين بالكتب أقل من خلفائهم. فيكفى مثلا أن الوزير الأفضل بن أمير الجيوش قد اشترى عشرة آلاف مجلدة دفعة واحدة من الطبيب افرائيم بن الزفان كان قد باعها إلى رجل من العراق «فلما سمع بذلك أراد أن تلك الكتب تبقى فى الديار المصرية ولا تنقل إلى موضع آخر فبعث إلى افرائيم من عنده بجملة المال الذى كان قد اتفق تثمينه. . . ونقلت الكتب إلى خزانة الأفضل[5] وهذا يدل على أن المكتبة الفاطمية نمت سريعا مرة أخرى وعوضت ما خسرته إبان عهد المستنصر حتى استردت مكانتها العظيمة فى عهد الخليفة العاضد.

---

(١) المقريزى: الخطط جـ ١ ص ٤٠٨.

(٢) المقريزى: الخطط جـ ١ ص ٤٠٨.

(٣) القفطى: تاريخ الحكماء ص ٤٤٠.

(٤) المقريزى: الخطط جـ ١ ص ٢٠٨. خطاب عطيه: التعليم فى مصر ص ١٩٥.

(٥) ابن أبى أصيبعة: طبقات الأطباء جـ ٢ ص ١٠٥. خطاب عطية: التعليم فى مصر ص ١٩٢.

فلما ملك صلاح الدين الديار المصرية استولى على كنوز الفاطميين وخزائنهم. ويصف أبو شامة خزائن الكتب بأنها كانت من عجائب الدنيا، لأنه لم يكن فى جميع بلاد الإسلام دار كتب أعظم من الدار التى بالقاهرة فى القصر. ومن عجائبها أنه كان بها ألف ومئتان وعشرون نسخة من تاريخ الطبرى، ويقال: إنها كانت تحوى ألفى ألف كتاب[1]. وقد تولى الأمير بهاء الدين قراقوش الإشراف على كنوز الفاطميين والتصرف فى كتبهم. فتخلص من عدد كبير من الكتب التى كانت تتحدث عن عقائدهم وملتهم، فأحرق الكثير من الكتب ورمى البعض الآخر فى النيل أو رميت فى حفرة عميقة وغطيت بالتراب[2]. وفتح باب القصر أمام الراغبين فى شراء ما تبقى من الكتب فحظى القاضى الفاضل بنصيب الأسد من تلك التركة إذ إنه دخل القصر قبل البدء فى بيع الكتب واختار ما شاء منها، وبلغت جملة ما اشتراه من الكتب مائة ألف مجلد[3] وضعها فى مكتبة مدرسته التى أنشأها بعد ذلك.

وقد تخصص يومان فى الأسبوع لبيع تلك الكتب وتولى الدلالون هذه المهمة تحت إشراف الأمير قراقوش الذى لم تكن عنده أية دراية بقيمتها العلمية أو الفنية، فكان الدلالون يتلاعبون فيها ويبيعونها بأرخص الأسعار مع احتفاظهم بالكتب النفيسة لأنفسهم لبيعها بعد ذلك لحسابهم.

وكان العماد الكاتب قد حضر إلى القاهرة وذهب إلى القصر وشاهد ما يجرى فيه فاشترى جملة كبيرة من الكتب. وعن ذلك يقول «واستكثرت من المتاع المبتاع وحويت نفائس الأنواع ولما عرف السلطان ما ابتعته وكان بمئين أنعم على بها وأبرأ ذمتى من ذهبها ثم وهب لى أيضا من خزانة القصر ما عينت عينه من كتبها»[4].

ولعل أبلغ تعبير عما جرى للكتب الفاطمية فى بداية العصر الأيوبى ما جاء عن لسان العماد أيضا ووصفه لخزائن الكتب وما انتهى إليه مصيرها «وفيها من الخطوط المنسوبة ما اختطفته الأيدى واقتطعه التعدى وكانت كالميراث مع أمناء الأيتام يتصرف فيها بشره الانتهاب والانتهام ونقلت منها ثمانية أحمال إلى الشام»[5].

---

(١) أبو شامة: الروضتين جـ ١ ص ٢٠٠ - انظر. ابن كثير: البداية والنهاية جـ ١٢ ص ٢٦٦.

(٢) Encyclopaedia of Islam. Vol. 3. Part. 1. p. 353.

(٣) المقريزى: الخطط جـ ١ ص ٤٠٨. ابن كثير: البداية والنهاية جـ ١٢ ص ٢٦٦.

Encyclopaedia of Islam. Vol. 3, part 1, p. 353.

(٤) أبو شامة: الروضتين جـ ١ ص ٢٦٨.

(٥) أبو شامة: الروضتين جـ ١ ص ٢٠٠

ظهور المدارس :

استمرت المساجد ودار العلم فى أداء رسالة التعليم التى عينتها الدولة الفاطمية وسخرتها لنشر مذهبها. ورغم وجود بعض التسامح والحرية العلمية فى الفترة الأولى من حكم الحاكم بأمر الله، إلا أنه سرعان ما عاد إلى نزعته التعسفية واضطهاد علماء السنة. وقد استمرت سياسة إخضاع التعليم وفقا لمذهب الدولة الرسمى طالما كان نفوذ الفاطميين قويا وسيطرتهم قوية على أمور الدولة. ولكن هذا النفوذ بدأ فى التدهور نتيجة لما أصابها من الكوارث الاقتصادية وخاصة فى عهد الخليفة المستنصر. إذ بدأ الوزراء يستبدون بالسلطة ويستأثرون بالحكم، وأظهر بعضهم شيئا من التسامح مع أصحاب المذاهب السنية وتركوا لهم حرية العبادة والدراسة. وكان هذا يبدو واضحا إذا ما قام فى الوزارة أحد السنيين.

ولكنا إذا تركنا القاهرة مركز الدعوة الشيعية وحاضرة الخلافة الفاطمية وجدنا بلدا مثل الإسكندرية لم تتأثر كثيرا بهذه الدعوة. ولم تكن السلطة فيها من القوة أو الشدة التى شهدتها القاهرة. فكان موقعها الجغرافى على ساحل البحر المتوسط غرب مصر مما جعلها مركزا لتجمع الحجاج المغاربة الذين يفدون إليها من المغرب الإسلامى والأندلس لأداء فريضة الحج. ولكثير من العلماء والدراسين الذين كانوا يرحلون فى طلب العلم إلى المشرق الإسلامى خاصة فى الوقت الذى بدأت تظهر ملامح النهضة العلمية متمثلة فى إنشاء المدارس التى أقامها نظام الملك الوزير السلجوقى فى العراق. أو للمجاورة لسماع الفقه والحديث فى الأراضى المقدسة سواء بالحجاز أو بيت المقدس. يضاف إلى ذلك وضع الإسكندرية كميناء تجارى هام يسيطر على تجارة الشرق ويفد عليها الكثير من التجار من مختلف الجنسيات سواء من الشرق أو الغرب الأوربى. فكان لمركزها التجارى ونشاط المعاملات التجارية بها أثرهما فى تسامح أهلها. كما كان لبعدها عن العاصمة وما يجرى فيها من منافسات بين الأمراء والوزراء حول السلطة أثره فى عدم انتشار المذهب الشيعى فيها وبقاء كثير من أهلها على مذاهبهم السنية وخاصة مذهب الإمام مالك الذى كانت له بالإسكندرية قاعدة راسخة وخاصة بين نزلائها من المغاربة والأندلسيين الذين كانوا يمرون ويستقرون فيها لبعض الوقت فى طريق سفرهم الطويل «ولكن كثيرا منهم وخاصة العلماء وطلاب العلم كانوا يؤثرون البقاء فى الإسكندرية واتخاذها وطنا ودار إقامة»[1].

ونتج عن هذا الوضع الفريد لمدينة الإسكندرية أن بدأت تظهر فيها ملامح علمية وتعليمية اختلفت اختلافا كليا عن نظام التعليم الذى تتبناه الدولة.

---

(١) الشيال: أعلام الإسكندرية ص ٥١، ٥٢.

مدرسة الطرطوشى :

ولد أبو بكر الطرطوشى[1] حَوالىْ سنة ٤٥٠ هـ (١٠٥٨ م) ببلدة طرطوشه من بلاد الأندلس وانتقل منها فى طلب العلم إلى باقى بلاد الأندلس وأجاز له القاضى أبو الوليد الباجى بسرقسطه ثم تحول منها إلى بلاد المشرق طلبا للعلم فحج ثم تحول إلى البصرة وبغداد. وتتلمذ على فقهاء المدرسة النظامية ومعظمهم من الشافعية برغم أن أبا بكر الطرطوشى كان مالكى المذهب[2]. ثم رحل إلى الشام وأقام بها مدة لازم فيها التدريس حتى ذاع صيته هناك. ثم طلب مدينة الإسكندرية فدخلها فى أعقاب فتنة الوزير الأفضل بن بدر الجمالى سنة ٤٨٧ هـ (١٠٩٤م) والتى انتهت بقتل عدد من علمائها «فوجد البلد عاطلا عن العلم فأقام بها وبث علما جما وكان يقول: إنْ سألنى الله تعالى عن المقام بالإسكندرية لما كانت عليه فى أيام الشيعة العبيديين من ترك وإقامة الجمعة وغير ذلك من المناكر التى كانت فى أيامهم، أقول وجدت قوما ضلالا فكنت سبب هدايتهم[3]. ولم يمض عليه غير قليل بالإسكندرية حتى ذاع صيته واشتهر. وقصده الطلاب والعلماء، ولكن الوزير الأفضل لم يتركه وشأنه بل أخرجه من الإسكندرية وألزمه الإقامة بمدينة الفسطاط، ومنعه من التدريس ومنع الناس من الأخذ عنه. ولما ولى الوزارة المأمون البطائحى أكرم الشيخ وعظمه، وسمح له بالعودة إلى الإسكندرية حيث استأنف بها نشاطه العلمى والأدبى. ثم صنف للبطائحى كتابا فى السياسة والحكم سماه سراج الملوك[4]. وكان الشيخ قد تزوج بالإسكندرية من امرأة ذات ثراء فحسنت أحواله، ووهبت له دارا كبيرة فاتخذ الدور العلوى سكنا له ولزوجته «وأباح قاعتها وسفلها للطلبة فجعلها مدرسة ولازم التدريس وتفقه عنده جماعة من الإسكندرانيين»[5].

وكانت للشيخ الطرطوشى طريقته الفريدة فى إلقاء دروسه. إذ كان يصحب طلابه فى رحلات خارج المدينة حيث الهدوء والبعد عن الضوضاء، وقد استهوت هذه الطريقة عددا كبيرا

---

(١) محمد بن الوليد بن خلف بن سليمان بن أيوب الفهرى المعروف بالطرطوشى ومنها أصله ويكنى أبا بكر: انظر: ابن فرحون: الديباج المذهب ص ٢٧٦.

(٢) الشيال: أعلام الإسكندرية ص ٦٠.

(٣) ابن فرحون الديباج المذهب ص ٢٧٨.

(٤) ابن خلكان: وفيات الأعيان جـ ٣ ص ٣٩٣، ٣٩٥ – ابن العماد: شذرات الذهب جـ ٤ ص ٦٢، ٦٤ – ابن فرحون: الديباج المذهب ص ٢٧٨ – ابن أيبك الصفدى: الوافى بالوفيات جـ ٥ ص ٢٧٧. السيوطى: حسن المحاضرة جـ ١ ص ٢١٣ – الشيال: أعلام الإسكندرية ص ٧٧.

(٥) ابن فرحون: الديباجج المذهب ص ٢٧٦ - العينى: عقد الجمان جـ ١٢ سنة ٥٧٦ هـ. الشيال: أعلام الإسكندرية ص ٧١.

من الطلبة الذين أقبلوا على دروسه حتى قارب عددهم أربعمائة طالب. وكان يقوم على خدمة الشيخ وقضاء حوائجه أحد تلامذته وهو أبو عبد الله بن عبد الرحمن التجيبى الذى يصف نزهات شيخه فيقول بأنه «كان صاحب نزهة مع طلبته فى أكثر الأوقات يخرج معهم إلى البستان فيقيمون الأيام المتوالية فى فرجة ومذاكرة ومداعبة مما لا يقدح فى حق الطلبة بل يدل على فضلهم وسلامة صدورهم. قال وخرجنا معه فى بعض النزهة فكنا ثلاثمائة وستين رجلا لكثرة الآخذين عنه المحبين فى صحبته وخدمته»[1] على أن شهرة الشيخ أبى بكر الطرطوشى ومدرسته كانت قد ذاعت وقصده الكثير من الدارسين من خارج مصر الذين رحلوا إليه للانتفاع بعلمه وفضله. يذكر العينى أن محمد بن تومرت صاحب دعوة عبد المؤمن بن على بالمغرب الذى رحل إلى الشرق واجتمع فى العراق بأبى حامد الغزالى قد اجتمع أيضا بالشيخ الطرطوشى فى الإسكندرية[2] للأخذ عنه.

واستمر الشيخ أبو بكر مقيما بالإسكندرية ملازما مدرسته ودروسه إلى أن توفى فى سنة ٥٢٠ هـ (١١٢٦م) فقام سند بن عنان أحد تلامذته لإكمال رسالة شيخه «وجلس لإلقاء الدرس بعد الشيخ أبو بكر الطرطوشى»[3] وظل ابن عنان يدرس إحدى وعشرين سنة بمدرسة أستاذه إلى أن توفى سنة ٥٤١ هـ (١١٤٦م) ودفن بالقرب من قبر الطرطوشى[4].

ولعلنا نقف هنا وقفه قصيرة أمام هذه المدرسة. فالمعروف أن دور العلم التى أنشئت قبل ذلك كانت الدولة هى التى تقيمها وتتبناها، وتقوم بالصرف عليها سواء فى دار العلم أو المساجد بالقاهرة التى كانت تنفق عليها الدولة الفاطمية وتحدد العلوم التى تدرس فيها، أو تلك التى أنشأها نظام الملك لمحاربة المذهب الشيعى والدعوة للمذهب السنى.

أما هذه المدرسة فلم تكن فى حقيقة أمرها مدرسة بالمعنى العلمى الذى عرف فيما بعد، بمعنى أنه لم تتوافر لها أركان المدرسة من وقف يدعمها ويحدد عدد المدرسين والطلاب الذين يدرسون فيها ونوع الدراسة.. وإنما كانت أشبه بحلقة دراسية التف فيها مجموعة من طلاب العلم حول شيخ سمعوا بفضله وعلمه للأخذ عنه. ولذا أطلق عليها اسم مدرسة تجاوزا بوصفها مكانا للدرس دون أن تتوافر لها أركان المدرسة مثلما هو معروف فى مصطلح تاريخ العصور الوسطى.

---

(١) ابن فرحون: الديباج المذهب ص ٢٧٧ الشيال: أعلام الإسكندرية ص ٧٣.

(٢) العينى. عقد الجمان جـ ١١ سنة ٥١٤.

(٣) ابن فرحون: الديباج المذهب جـ ١ ص ١٢٦ - الشيال: أعلام الإسكندرية ص ١٠٢، ١٠٣.

(٤) السيوطى. حسن المحاضرة جـ ١ ص ٢١٣ -- الشيال: أعلام الإسكندرية ص ١٠٤.

مدرسة أبى الطاهر بن عوف:[1]

أحد تلامذة الطرطوشى النابهين الذين تتلمذوا فى مدرسته على مذهب الإمام مالك، وكان ابن عوف إمام عصره وفريد دهره فى الفقه على مذهب مالك وعليه مدار الفتوى؛ جمع بين الورع والزهد وكثرة العبادة ونزاهة النفس من بيت اشتهر بالفضل والعلم «وكان الشيخ أبو الطاهر ابن عوف ربيب الإمام أبى بكر الطرطوشى وقيل: إن خالته كانت تحت الطرطوشى وعليه تفقه وبه انتفع فى علوم شتى»[2].

أقيمت له مدرسة بالثغر أنشأها له رضوان بن ولخشى وزير الخليفة الحافظ لدين الله سنة ٥٣٢ هـ[3] (١١٣٧م). وإذا كانت مدرسة الطرطوشى أول مدرسة أنشئت بالإسكندرية فإنها إذا جاز التشبيه مدرسة أهلية أو مدرسة خاصة يرجع الفضل فى إنشائها واستمرار التدريس فيها لشيخها ومن تلاه من تلامذته. أما هذه المدرسة (العوفية) فتختلف اختلافا كبيرا عن المدرسة الأولى، حقيقة إن كلا المدرستين قد أقيمتا لتدريس علوم السنة. لكن الاختلاف هنا أن الخليفة الحافظ الفاطمى هو الذى احتضن هذه المدرسة ووفر لها من الأموال ما يضمن لها الاستمرار والبقاء. الحقيقة التالية أن الذى سمح أساسا بإنشاء هذه المدرسة هو الوزير رضوان بن ولخشى الذى كانت بيده السلطة الفعلية. ومن واقع السجل الصادر من الخليفة الحافظ لدين الله الفاطمى بتعيين أبى الطاهر بن عوف مدرسا لهذه المدرسة نستطيع أن نُكوِّن صورة واضحة عن هذه المدرسة. أسباب نشأتها وطريقة تمويلها.

فمثلا نجد من أسباب إنشاء هذه المدرسة موقع مدينة الإسكندرية وميزة ثغرها لما يشمل من المرابطين والفقهاء ومن يستوطونها أو يرحل إليها طلبا للعلم، ثم رغبة الخليفة فى إيجاد معهد مناسب لهم يجمع شملهم «.. وأن طالبى العلم من أهله ومن الواردين إليه والطارئين عليه، مشتتو الشمل متفرقوا الجمع... أبى أمير المؤمنين أن يكونوا حائرين متلددين ولم يرض لهم أن يبقوا مذبذبين وخرجت أوامره بإنشاء المدرسة الحافظية بهذا الثغر المحروس بشارع المحجة»[4] واشتملت مبانى المدرسة على مساكن للطلاب لكى تكون «مستقرا لهم ومقاما ومثوى لجميعهم ووطنا ومحلا لكافتهم وسكنا»[5].

---

(١) اسماعيل بن مكى بن اسماعيل عيسى بن عوف.. بن عبد الرحمن بن عوف صاحب رسول الله ﷺ «٤٨٥ ٥٨١ هـ) ١٠٩٢ - ١١٥٨ م.

(٢) ابن فرحون: الديباج المذهب ص ٩٥، ٩٦ - السيوطى: حسن المحاضرة جـ ١ ص ٢١٣ ابن العماد: شذرات الذهب جـ ٤ ص ٢٦٨ - الشيال: أعلام الإسكندرية ص ١١٣

(٣) الشيال: أعلام الإسكندرية ص ١١٣. زكى محمد حسن: فنون الإسلام ص ٦٥. السيد عبد العزيز. تاريخ الإسكندرية ص ٦٣، ٦٤.

(٤) القلقشندى: صبح الأعشى جـ ١٠ ص ٤٥٨.

(٥) القلقشندى: صبح الأعشى جـ ١٠ ص ٤٥٨، ٤٥٩.

ورتب لهم الخليفة ما يحتاجون إليه فى معاشهم أثناء إقامتهم بالمدرسة - كما يذكر السجل- « وأن يكون ما ينصرف إلى مؤنة كل منهم والقيام بأوده وإعانته على ما هو بسبيله وبصدده من عين وغلة مطلقا من ديوانه»[1] . والملاحظ أن السجل يؤكد كفالة الطلبة من ناحية الإقامة وتوفير ما يحتاجون إليه، ولكنه لا يذكر شيئا أو أغفل ذكر أى شيء بشأن صرف مرتبات نقدية للطلبة المقيمين بالمدرسة.

كما يعطينا السجل صورة عن مكانة أبى الطاهر بن عوف العلمية، وأنه بسببها قد اختير لتدريس هذه المدرسة «واستقرت التقدمة فى هذه المدرسة لك أيها الفقيه الرشيد. لنفاذك واطلاعك وقوتك فى الفقه واستضلاعك ولأنك الصدر فى علوم الشريعة»[2] .

أما المواد التى درست بهذه المدرسة فقد كانت خاصة بعلوم الشريعة، كما حددها السجل «وأمر أمير المؤمنين أن تدرس علوم الشريعة للراغبين، وتعلم ماعلمك الله إياه لمن يريد من المؤثرين والطالبين»[3]. ثم يقرر السجل أن يقوم الموظفون بالثغر برعاية المدرسة وطلبة العلم النازلين فيها، والاهتمام بمصالحهم، وأن يتلى هذا المنشور بالمسجد الجامع وأن يحفظ السجل بالمدرسة حجة بما تضمنه حماية لهم من سطوة أى من متطرفى الأمراء أو الوزراء الشيعيين إذ ينص السجل«وليخلد بهذه المدرسة حجة بما تضمنه إن شاء الله عز وجل»[4].وقد استمرت هذه المدرسة قائمة بالإسكندرية حتى نهاية الدولة الفاطمية وسقوطها على يدالسلطان صلاح الدين الأيوبى، فحظى عنده ابن عوف بمكانة كبيرة.وكان صلاح الدين يراسله ويستفتيه. وقيل: إن ابن عوف كان السبب فى تجديد الصادر بثغر الإسكندرية وهو شيء وظفه السلطان على تجار النصارى إذا صدروا من الإسكندرية شيئا «زائدا على العشر رتبه لفقهاء الثغر. دنانير تصرف كل شهر»[5] .

مدرسة الحافظ السلفى:

ولد الحافظ السلفى[6] بمدينة أصبهان وهناك اختلاف فى تاريخ مولده. عموما ولد فى الفترة ما بين٤٧٢-٤٧٥هـ(١٠٧٩-١٠٨٢م) يذكر ابن خلكان أنه ولد فى سنة٤٧٥هـ تقريبا بينما يذكر

---

(١) القلقشندى: صبح الأعشى جـ ١٠ ص ٤٥٩ - الشيال: أعلام الإسكندرية ص ١٢٢

(٢) القلقشندى: صبح الأعشى جـ ١٠ ص ٤٥٩.

(٣) القلقشندى: صبح الأعشى جـ ١٠ ص ٤٥٩.

(٤) القلقشندى: صبح الأعشى جـ ١٠ ص ٤٥٩ الشيال. اعلام الإسكندرية ص ١٢٣.

(٥) ابن فرحون: الديباج المذهب ص ٩٦.

(٦) الحافظ أبو ظاهر أحمد بن محمد بن أحمد بن محمد بن إبراهيم سلفه الأصبهانى الملقب صدر الدين: انظر: ابن خلكان: وفيات الأعيان جـ ١ ص ١٨٧. ابن شداد. النوادر السلطانية ص ٩. ابن كثير البداية والنهاية جـ ١٢ ص ٣٠٧.

الذهبى أنه مما شوهد بخطه - أى خط السلفى - مولدى سنة اثنتين وسبعين تخمينا[1] وتلقى أول تعليمه فى بلدة أصبهان حيث سمع على شيوخها وحدث عنهم، ثم ترك وطنه فى سنة٥٠٣هـ(١١٠٩م)مرتحلا فى طلب العلم فدخل«بغداد،ثم حج وسمع بالحرمين والكوفة والبصرة وهمزان وزنجان والرى»[2]. وغيرها من البلاد. ثم توجه إلى الشام ومنها إلى الإسكندرية بطريق البحر فى سنة إحدى عشرة وخمسمائة[3](١١١٧م). وكان السلفى عند قدومه الإسكندرية فقيرا معدما، فحذا حذو الطرطوشى وتزوج من أهلها بامرأة ذات بستان فحصلت له الثروة[4].

واشتغل السلفى منذ نزوله الإسكندرية بالتدريس، وتدريس الحديث بوجه خاص فلم يلبث أن ذاع صيته وأقبل عليه الطلاب، ولعل ما أغرى السلفى بالإقامة فى الإسكندرية هو أن غالبية سكانها من السنيين، كذلك ربما كان للمدرسة التى أنشأها الطرطوشى والنشاط العلمى وكثرة المشتغلين بالعلم من أهل السنة باعثا له ومشجعا على اختيار الإسكندرية دار إقامة. ولكن النشاط العلمى بالفسطاط جذبه إليها حيث التقى فيها بعلمائها وأدبائها، وتردد على حلقات العلم بجامع عمرو واتخذ له حلقة وسط هذه الحلقات كان يدرس فيها الحديث[5]. وفى مدة إقامة السلفى بالفسطاط التى استمرت حوالى ثلاث سنوات توطدت صلته بعلماء مصر وفضلائها. كذلك استطاع أن يكسب ود أصحاب الكلمة فيها. ويذكر أن السلفى « كان له عند ملوك مصر الجاه والقوة والكلمة النافذة مع مخالفته لهم فى المذهب»[6]. ثم يعود السلفى إلى الإسكندرية فى سنة ٥١٥هـ (١١٢١م) ليزاول بها نشاطه، واستمر بها إلى أن تقلد ولاية الإسكندرية أبو الحسن على بن السلار، وكان سنيا شافعى المذهب فاحتضن السلفى بالعطف والرعاية مدة ولايته على الثغر، ثم استولى ابن السلار على الوزارة فى الخامس من شعبان سنة ٥٤٤هـ[7]. (٤ ديسمبر سنة ١١٤٩م) ولقب بالعادل وبنى له مدرسة سنة ٥٤٤هـ (١١٥١م)

---

(١) الذهبى: تذكرة الحفاظ جـ ٤ ط ١٦ ص ١٣٠٢.

(٢) ابن أسعد: مرآة الجنان جـ ٣ ص ٤٠٣، ٤٠٤ ابن العماد: شذرات الذهب جـ ٤ ص ٢٥٥.

(٣) ابن خلكان: وفيان الأعيان جـ ١ ص ٨٧ - ابن شداد: النوادر السلطانية ص ١٠ - العينى: عقد الجمان جـ١٢ سنة ٥٧٦هـ - ابن كثير: البداية والنهاية جـ ١٢ ص ٣٠٧، ٣٠٨.

(٤) الذهبى: تذكر الحفاظ جـ ٤ ط ١٦ ص ١٣٠٢ - ابن العماد: شذرات الذهب جـ ٤ ص ٢٥٥ - الشيال: أعلام الإسكندرية ص ١٣٦ - أحمد شلبى: تاريخ التربية ص ٥٨.

(٥) الشيال: أعلام الإسكندرية ص ١٣٨، ١٣٩.

(٦) الذهبى: تذكرة الحفاظ جـ ٤ ط ١٦ ص ١٣٠١. انظر السبكى: طبقات الشافعية جـ ٤ ص ٤٥ ابن أيبك الصفدى - الوافى بالوفيات جـ ٧ ص ٣٥٤.

(٧) ابن أيبك الداودى - كنز الدرر جـ ٦ ص ٥٥٣.

بالثغر وفوضها إليه[1]. وسميت هذه المدرسة أول الأمر باسم المدرسة العادلية نسبة إلى منشئها الوزير العادل بن السلار ولكنها سرعان ما عرفت باسم مدرسها.

وكان لإنشاء هذه المدرسة فرحة كبيرة عند أهل الإسكندرية وعبر أحد شعرائهم عن فرحته بقصيدة يمدح فيها العادل بن السلار ويفخر بوجود هذه المدرسة بالإسكندرية ومن بعض أبيات هذه القصيدة[2].

وكان الحافظ السلفى يقوم بالتدريس ويعاونه بعض المعيدين. ومن هؤلاء أبو المعالى رافع بن يوسف، عاون السلفى فى بناء المدرسة كما كان يقوم بإعادة الدرس على أربعين طالبا من الصبيان ويؤم الناس فى الصلوات.

أما العلوم التى كانت تدرس بهذه المدرسة فكانت تشتمل دروس الفقه والتفسير والحديث وبعض العلوم التى تتصل بها كالتاريخ وسيرة ابن هشام، وكان له فى تدريسه طريقتان إحداهما: أن يقرأ نصا أو كتابا ويقوم بالشرح والتعليق عليه، أو أن يملى أمالى خاصة من حفظه كان يسميها الأمالى الحديثية[3] ومن ذلك يتضح أن الدراسة فى مدرسة السلفى بدأت فى أول أمرها بدراسة التفسير والحديث بصفة خاصة بالإضافة إلى فقه الإمام الشافعى. ويبدو أن الدراسة الفقهية غلبت عليها فيما بعد حيث يذكر ابن خلكان « ولم أر بالإسكندرية مدرسة للشافعية سواها »[4].

وكان الحافظ السلفى متأثرا بآداب شيخه ابن البطر فى إلقاء الدرس[5]. فكان يلتزم الأدب والوقار أثناء إلقائه للدروس فلا يشرب ولا يبزق ولا يتورك ولا يبدو له قدم، أيضا كان يُلزم من يحضر عنده الدرس بالتزام هذه الآداب واحترام قدسية الدرس فيذكر أن «سلطان مصر حضر

---

(١) ابن خلكان: وفيات الأعيان جـ ١ ص ٨٧: انظر جـ ٣ ص ٩٢، ٩٣- ابن شداد: النوادر السلطانية ص ١٠ ابن أسعد: مرآة الجنان جـ ٣ ص ٤٠٣، ٤٠٤ العينى عقد الجمان جـ١٢ سنة ٥٧٦هـ ابن كثير: البداية والنهاية جـ ١٢ ص ٢٣١، ص ٣٠٧.

(٢) لله در العادل المرتجى ذى العز والتأييد والنصر
أنشأها لنا مدرسة مثلها لم ينش فى دهر ولا عصر
بغداد دار العلم لم تفخر بمثلها قط على مصر

انظر الشيال: أعلام الإسكندرية ص ١٤٠.

(٣) الشيال: أعلام الإسكندرية: ص ١٤٢.

(٤) ابن خلكان. وفيات الأعيان جـ ٣ ص ٩٣

(٥) الذهبى: تذكرة الحفاظ جـ ٤ ط ١٦ ص ١٣٠٣ السبكى: طبقات الشافعية جـ ٤ ص ٤٣ ابن أيبك الصفدى. الوافى بالوفيات جـ ٧ ص ٣٥٤ – الشيال: أعلام الإسكندرية ص ١٤٣.

عدة أسابيع فشرع يتحدث مع أخيه فزبرهما[1]. وقال: ايش هذا نقرأ الحديث وأنتما تتحدثان»[2].

وكانت للسلفى مكانته فى المجتمع السكندرى وله الكلمة النافذة عند الولاة برغم مخالفته لهم فى المذهب. وذاع صيته وقصده الناس ورحلوا إليه وسمعوا عليه أماليه فى الحديث، وانتهى «إليه علم الإسناد روى عنه الحفاظ فى حياته وله تصانيف وكان أوحد زمانه فى علم الحديث وأعلمهم بقوانين الرواية»[3]. والدليل على ذلك أن يذكر كل من ابن خلكان وابن عساكر أنهما لم يحظيا بالسماع منه ولكنهما سمعا من جماعة من أصحابه.

وكان السلفى مغرما بجمع الكتب، وكانت عنده عدة خزائن لها، أنفق معظم أمواله فى شراء الكتب واقتنائها ورغم ذلك فكان «لا يتفرغ للنظر فيها فعننت وتلصقت لنداوة البلد»[4].

واستمر السلفى مقيما بالإسكندرية مكبا على الاشتغال بالتدريس والمطالعة والنسخ وشاهد سقوط الدولة الفاطمية. وحظى عند صلاح الدين وأسمعه وأولاده الحديث.

الدراسات والعلوم فى العصر الفاطمى:

لا شك أن العصر الفاطمى تميز بنوع خاص من الدراسات التى تختلف عما درج عليه المصريون. هذه الدراسات تتعلق بالعقيدة. إذ كان للشيعة فقههم الخاص الذى يخالف فقه أهل السنة فى كثير من الوجود، كما كانت لهم نظرة خاصة فى علم الحديث، أما باقى العلوم كالعلوم اللغوية وغيرها فإنها لم تتأثر بشىء نظرا لثباتها وعدم ارتباطها بشىء يدعم مركز الشيعة فى ادعائهم بأنهم ورثة رسول الله ﷺ، ولكنهم استغلوا بعض هذه العلوم من جهة أخرى فى الدعاية لمذهبهم فنمت وازدهرت نتيجة لذلك، وبالأخص الشعر لأنهم وجدوا أن الشعراء من أصلح الدعاة فاحتضنوهم وأجزلوا لهم العطاء ليطلقوا ألسنتهم بالقول فى مدح ومدح مذهبهم[5]، وأصبحت مصر فى عهد الفاطميين مقصدا لكثير من الشعراء الذين و

---

(١) بمعنى زجرهما أو نهاهما أو منعهما انظر تاج العروس جـ ٢ مادة زبر.

(٢) الذهبى: تذكرة الحفاظ جـ ٤ ط ١٦ ص ١٣٠١ – ١٣٠٢ – السبكى طبقات الشافعية جـ ٤ بينما يذكر ابن أيبك الصفدى أن حديث السلفى كان موجها لصلاح الدين وأخيه – انظر الوافى بالوفيات جـ ٧ ص ٣٥٤.

(٣) السيوطى: حسن المحاضرة جـ ١ ص ٢٠٠ – ابن أسعد. مرآة الجنان جـ ٣ ص ٤٠٣، ٤٠٤

(٤) الذهبى: تذكرة الحفاظ جـ ٤ ط ١٦ ص ١٣٠٣ – ابن أيبك الصفدى: الوافى بالوفيات جـ ٧ ص٣٥٤ انظر. ابن العماد: شذرات الذهب جـ ٤ ص ٢٥٥. الشيال أعلام الإسكندرية ص ١٤٨، ١٤٩ وتوفى انحافظ السلفى فى ربيع الآخر سنة ٥٧٦هـ (١١٨٠م).

(٥) انظر: السيوطى. حسن المحاضرة جـ ١ ص ٣٢٣، ٣٢٤ ابن خلكان: وفيات الأعيان جـ ٣ ص ٦٤ الثعالبى. يتيمة الدهر جـ ١ ص ٢٦٩ – ٢٩٥ – أحمد أمين. ظهر الإسلام جـ ١ ص ٢٠٦ حسن ابراهيم حسن تاريخ الإسلام جـ ٣ ص ٥٥١ – ٥٥٣ – ذو النون. عمارة اليمنى ص ٤٨ ٥٧.

عليها من المغرب و العراق والشام واليمن بالإضافة إلى الشعراء المصريين. وصاحب ذلك أيضا ازدهار فى الدراسات النحوية، وظهور بعض النحاة المتمكنين ومن أشهرهم أبو بكر الأدفوى الذى ألف كتابا فى علوم القرآن فى مائة وعشرين مجلدا، وابن بابشاد الذى ألف شرحا على كتاب الجمل للزجاج والمحتسب فى النحو. وكان لديوان الإنشاء الفاطمى أثره الكثير فى تقدم النثر بصفة خاصة[1].

أما العلوم التى حظيت بالرعاية، وتوفرت لها سبل النمو والازدهار فى تلك الفترة فهى علوم الفلسفة والنجوم والطب، وقد توفرت الرعاية للمشتغلين بهذه العلوم نتيجة لاهتمام الخلفاء الفاطميين واشتغالهم ببعض هذه العلوم، بل وتعمقهم فيها. أو لأنها علوم تساعد فى فهم الدعوة الشيعية والدعاية لها.

الفقه:

كانت الدراسات الفقهية فى مصر قبل الفتح الفاطمى تدور حول دراسة فقه مالك والشافعى، لأن غالبية المصريين كانوا ينتمون إلى هذين المذهبين إلى أن استولى الفاطميون على الحكم، وبدءوا فى نشر مذهبهم الذى صار المذهب الرسمى للدولة، وصار العمل به فى القضاء والفتيا. وكان المذهب الشيعى الذى أدخله الفاطميون مصر له أسس ودعائم تخالف ما كان عليه أهل السنة، كعصمة الأئمة ونحو ذلك ويأتى بشعائر ظاهرة مخالفة لشعائر السنيين[2]. كذلك كان الخلاف فى النظر إلى مسألة الخلافة وهى مسألة سياسية صبغت باللون الدينى، فالشيعة يرون أن عليا ونسله لهم الحق فى الخلافة دون غيرهم[3]. وقد صاحب دخول الفاطميين مصر عدد كبير من علماء مذهبهم، ماهرون فى الدعوة واقفون على أسرار تعاليم أهل البيت، وأشهر هؤلاء العلماء النعمان بن محمد وكان مالكى المذهب، ثم انتقل إلى مذهب الإمامية وله ردود على المخالفين لمذهبه، له رد على ابن حنيفة ومالك والشافعى وابن سريج[4]. ثم ابنه محمد بن

---

(١) انظر: ابن خلكان. وفيات الأعيان جـ ٢ ص ١٩٩ – ٢٠٠. السيوطى: حسن المحاضرة جـ ١ ص ٢٨٠، ٣٠٦، ٣٠٧. أحمد أمين: ظهر الإسلام جـ ١ ص ٢٠٥ وما بعدها إلى ٢١٥.

(٢) انظر الشهرستانى: الملل والنحل جـ ١ ص ٣٢٤ وما بعدها – أحمد أمين: ظهر الإسلام جـ ١ ص ١٨٨. ابن الاكفانى: إرشاد القاصد ورقة ٢٢، ٢٣.

(٣) انظر الشهرستانى: الملل والنحل جـ ١ ص ٢٧٧، ٢٧٨ – ابن حزم: الفصل فى الملل والأهواء والنحل جـ ٢ ص ١١٢، ١١٣ – أحمد أمين: ظهر الإسلام جـ ٢ ص ٥.

(٤) انظر: ابن خلكان: وفيات الأعيان جـ ٥ ص ٤٨ إلى ٥٦ - المقريزى: الخطط جـ ٢ ص ٣٤٠.

ابن أيبك الصفدى: الوافى بالوفيات جـ ٥ ص ١٣١، ١٣٢– أحمد أمين: ظهر الإسلام جـ ١ ص ١٩٦، ١٩٧.

النعمان قاضى المعز وألف فى العقائد الشيعية الكتاب المسمى «البلاغ الأكبر والناموس الأعظم». كذلك كان الوزير يعقوب بن كلس من أكبر علماء المذهب الشيعى. وله مؤلفاته فى الفقه التى سمعها عن المعز والعزيز وكان له دوره المعروف وجهوده التى بذلها فى نشر الدعوة وتحويل الجامع الأزهر إلى جامعة علمية.

وقد تعددت مظاهر الخلاف بين الفقه الشيعى والفقه السنى فى كثير من الشعائر. وتبدأ هذه الاختلافات بالأذان، فنجد أن الشيعة ينادون «بحى على خير العمل». وكذلك فى الصلاة حيث يجهرون بالصلاة على على بن أبى طالب. وزيادة القنوت فى الركعة الثانية من صلاة الجمعة كما أنهم منعوا صلاة التراويح وصلاة الضحى.

كذلك كان لهم نظامهم الخاص فى الميراث بحيث أن البنت لا يرث معها إلا الأب أو الأم أو الزوج دون سائر الأقرباء. حتى يكون ميراث النبى ﷺ قد انتقل إلى ابنته فاطمة الزهراء وليس لأبناء عمومته.

نجد أيضا مظاهر الاختلاف فى صيام شهر رمضان حيث يصومون ويفطرون على حساب خاص بهم وليس اعتمادا على رؤية الهلال[1].

وكان لهذا الاختلاف فى الفقه بين المذهب الشيعى وفقه أهل مصر السنى أن أوجد حركة واسعة من المناقشات بين فقهاء مصر لتفنيد آراء الشيعة وإثبات بطلانها، ولكنها كانت حركة مقيدة نتيجة لخضوع مصر للفاطميين. ولكن علماء السنة بالعراق حاولوا من جانبهم الرد على فقهاء الشيعة، وظهرت كتب الغزالى المستظهرى فى الرد على الباطنية وبيان فضائح الإمامية ومواهم الباطنية[2].

الحديث:

تأثر علم الحديث بالتالى طبقا للفكر والفقه الشيعى. وللشيعة عدة مؤلفات فى الحديث تختلف اختلافا جوهريا عن كتب أهل السنة. وقد أنكروا بوجه خاص جميع الأحاديث والتقارير التى ترجع فى حجتها إلى الخلفاء الثلاثة الأول قبل على، كما رفضوا الأحاديث التى

---

(١) انظر: المقريزى: الخطط جـ٢ ص ٣٩٩ – أحمد بدوى: الحياة العقلية ص ١٤٦ – أحمد أمين. ظهر الإسلام جـ ١ ص١٩٤، جـ ٤ ص ١١١.

(٢) انظر: السبكى: طبقات الشافعية جـ ٤ ص ١١٦ – ابن خلكان: وفيات الأعيان جـ ٣ ص ٣٥٤.
ابن العماد: شذرات الذهب جـ ٤ ص ١٠ – ١٣ – أحمد أمين: ظهر الإسلام جـ ١ ص ١٨٨.

تجعل عليا تاليا لهؤلاء الخلفاء اعتمادا على قوله عليه السلام من كنت مولاه فعلى مولاه[1]. وكتب الحديث الخاصة بالشيعة تتميز بالرواية عن الأئمة وعن رجال الشيعة. ومن أشهرها كتب الكافى للكلينى ويحتوى على ١٦ ألف حديث، وكتاب ابن بابويه ويحتوى على أربعة آلاف وأربعمائة وستة وتسعين حديثا هذا بالإضافة إلى كتب نصير الدين الطوسى وغير ذلك من كتب محدثى الشيعة[2].

الفلسفة:

اهتم الفاطميون بالدراسات الفلسفية لأنها وسيلة قوية مقنعة لنشر الدعوة، ذلك أن كل دعوة جديدة لابد لها لكى يكتب لها النجاح أن تعتمد على الجدل والمناقشة وإقامة الحجج والبراهين حتى يستطيع الداعى لها أن يقنع الناس بصحة مذهبه وبالتالى التأثير عليهم للدخول وترك ما توارثوه واعتقدوه. ونجد إحدى السجلات للدعوة يوصى الداعى «وكف كافة أهل الخلاف والعناد وجادلهم باللطف والسداد»[3]. ومما شجع على اشتغال الفاطميين بالفلسفة ما كان لهم من رأى فى أن للدين ظاهرا وباطنا، ومعنى صريحا ومعنى مؤولا، ولذلك التجئوا إلى الفلسفة اليونانية يستعينون بها على تأييد الدعوة الشيعية ويستمدون الآراء من أقوال أفلاطون وأرسطو وسائر حكماء اليونان[4].

أما مراحل الدعوة إلى المذهب الشيعى فكانت تنقسم إلى تسع مراحل. ففى المرحلة الأولى يحاول الداعى الشيعى أن يلقى على المريد بعض الأسئلة الفلسفية ربما لجذب انتباه المريد، وتحريك حب الاستطلاع والمعرفة فى نفسه فمثلا يسأله الداعى ما معنى قول الفلاسفة الإنسان عالم صغير والعالم إنسان كبير؟[5]. ويستمر المريد ابتداء من المرحلة الأولى يتنقل فى مراحل الدعوة واحدة بعد أخرى إلى أن يصل إلى الدعوة السادسة بعد أن يكون المريد قد اقتنع بأن أحكام الشريعة لها معان باطنة غير المعنى الظاهر لها فينقله الداعى إلى «الكلام فى الفلسفة وحضه على النظر فى كلام أفلاطون وأرسطو وفيثاغورس ومن فى معناهم ونهاه عن قبول الأخبار

---

(١) انظر ابن خلدون: المقدمة ص ١٨٦، ص ٢٩٥ إلى ٣١٢ - أحمد بدوى: الحياة العقلية ص ١٢٤ - عبد الحسين الأمينى: الغدير فى الكتاب والسنة جـ ١ ص ١١.

(٢) انظر السمعانى: الأنساب ص ٤٦٢ ابن أيبك الصفدى: الوافى بالوفيات جـ ٥ ص ٢٢٦ - أغا بزرك: الذريعة إلى تصانيف الشيعة جـ ٢ ص ٢٢٦. جـ ١٧ ص ٢٤٥، ٢٤٦ - أحمد أمين: ظهر الإسلام جـ ٤ ص ١٢٥ - خير الدين الزركلى: الأعلام جـ ٧ ص ١٥٩، جـ ٨ ص ١٧.

(٣) القلقشندى: صبح الأعشى جـ ١٠ ص ٤٣٦ - ٤٣٧.

(٤) أحمد أمين: ظهر الإسلام جـ ١ ص ١٨٨ - ١٩٠.

(٥) المقريزى: الخطط جـ ١ ص ٣٩١

والاحتجاج بالسمعيات وزين له الاقتداء بالأدلة العقلية والتعويل عليها»[1]. ويستمر المريد فى المرحلة السادسة من الدعوة إلى أن يتقن ما عين له ويستوعب ما هو مطلوب منه استيعابه من الفلسفة كوسيلة للتدرج والدخول فى الدعوة السابعة وفيها يقوم الدعاة أيضا فى تلقين المريد المزيد من القضايا والمشاكل «وأصلها مأخوذ من كلام الفلاسفة القائلين أن الواحد لا يصدر عنه إلا واحد»[2] ويستمر المريد فى هذا البرنامج المعد إلى أن يصل فى نهاية الطاف إلى الدعوة التاسعة وإذا ما تأكد الداعى أن المريد قد تأهل «لكشف السر والإفصاح عن الرموز أحاله على ما تقرر فى كتب الفلاسفة من علم الطبيعيات وما بعد الطبيعة والعلم الإلهى وغير ذلك من أقسام العلوم الفلسفية»[3].

ومن ذلك يتبين أن الدراسات الفلسفية فى العصر الفاطمى كانت نشيطة لاعتماد دعوتهم اعتمادا شبه كلى عليها. ولذا نجد أن العلوم الفلسفية كانت تدرس بدار الحكمة، وفى المجالس التى عقدت فى القصور. ولكن ذلك لم يمنع أن يدرس المنطق والفلسفة فى المساجد خصوصا فى الجامع الأزهر «وإن كان ذلك فى حدود ضيقة»[4].

النجوم:

من العلوم التى راجت وازدهرت فى العصر الفاطمى لاهتمام معظم الخلفاء الفاطميين[5] بهذا العلم. وكان معظمهم مغرما به ابتداء من المعز لدين الله أول خلفائهم. أما الحاكم بأمر الله فكان اكثر المهتمين والمشتغلين، أقام لنفسه بيتا يستطيع منه رصد النجوم وكان ينقطع فيه أياما كثيرة من أجل ذلك، ثم كان إنشاؤه لدار الحكمة وتوفيره العناية للعلماء، فكانت علوم النجوم والفلك من العلوم التى حظيت برعايته، وتقدم عنده المنجمون ومن بينهم أبو الحسن على بن سعيد[6] صاحب كتاب الزيج الحاكمى « وهى صناعة حسابية فيما يخص كل كوكب من طريق حركته من سرعة وبطء ورجوع وغير ذلك يعرف به مواضع الكواكب فى أفلاكها لأى وقت فرض من

---

(١) المقريزى : الخطط جـ ١ ص ٣٩٣. أحمد بدوى: الحياة العقلية ٢٨٧.

(٢) المقريزى : الخطط جـ ١ ص ٣٩٤.

(٣) المقريزى: الخطط جـ ١ ص ٣٩٤.

(٤) خطاب عطيه: التعليم فى مصر ص ١١٥.

(٥) ابن خلكان: وفيات الأعيان جـ ٤ ص ٣١٦. المقريزى: الخطط جـ ١ ص ٦، ٣ جـ ٢ ص ٢٨٨ – أبو المحاسن: النجوم الزاهرة جـ ٤ ص ٧٠، ١١٦ - ابن أيبك الدوادارى: كنز الدرر جـ ٦ ص ٢٥٦، ٢٥٧ – خطاب عطيه: التعليم فى مصر ص ١٧٧.

(٦) ابن خلكان: وفيات الأعيان جـ ٤ ص ٣٨١. العينى: عقد الجمان جـ ١٠ سنة ٣٩٩هـ أبو المحاسن: النجوم الزاهرة جـ ٤ ص ١٧٩ – السيوطى: حسن المحاضرة جـ ١ ص ٢٥٨ – ابن كثير: البداية والنهاية جـ ١١ ص ٣٤١.

قبل حسابه حركاتها»[1] وممن اعتنى بعلم الفلك والنجوم من الوزراء المأمون البطائحى وزير الآمر ونقل المرصد من جبل المقطم إلى سطح باب النصر وأمر بما تدعو الحاجة إليه من النحاس والذهب والفضة. ولازم العمل فى هذا المرصد طائفة من المهندسين والمنجمين. وكان المنجمون تطلق عليهم الأرزاق والكسوة على عمل التقويم فى كل سنة[2] وقد وفر لهم الخلفاء الفاطميون الكثير من الكتب التى تتناول هذا الموضوع بالدراسة والشرح إذ يذكر أنه كان بإحدى خزائن الكتب الفاطمية من كتب النجوم والفلسفة حوالى ستة آلاف وخمسمائة جزء[3].

لذلك كان الناس يعتقدون فى النجوم ومعرفة الطالع منها. فيذكر على بن رضوان رئيس الأطباء زمن الحاكم بأمر الله أنه اختار مهنة الطب وبدأ فى دراستها وتعلمها بعد معرفة طالعه يقول: « وكانت دلالات النجوم فى مولدى تدل على أن صناعتى الطب »[4]

كما كانت النجامة مصدر رزق للعاملين بها يقول ابن رضوان أيضا : إنه عندما بدأ يتعلم الطب كان فقيرا محتاجا فكان يتكسب « بصناعة القضايا بالنجوم » [5].

الطب والتشريح:

كان نصيب علم الطب من الاهتمام لا يقل عن سائر العلوم الأخرى فقد كانت الدعوة لاعتناق المذهب وتخريج دعاته تعتمد فى بعض مراحلها التسعة على المعرفة بالتشريح ووظائف الأعضاء وفلسفة هذه المعلومات واستخدامها للدعاية لمذهبهم كحجة طبيعية خلقها الله فى جسم الإنسان. فكان الداعى يطرح بعض الأسئلة فى المرحلة الأولى من الدعوة على المريد، مثلا: لم جعلت أعداد عظام الإنسان كذا؟ إلى غير ذلك من التشريح والقول فى العروق والأعضاء ووجوه منافع الحيوان[6]. وفى الدعوة الخامسة كان الداعى يقرر أنه لابد من وجود اثنتى عشرة حجة لكل إمام من الأئمة. كما أن عدد الأئمة سبعة. ويستدلون على ذلك بأنه صار فى ظهر الإنسان اثنتا عشرة خرزة وصار فى عنقه سبع[7].

واشتهر فى العصر الفاطمى كثير من الأطباء على رأسهم على بن رضوان وتلميذه افرائيم بن الزفان وكانت لابن رضوان كثير من المناظرات والرسائل مع ابن بطلان الطبيب البغدادى ولم

---

(١) أحمد بدوى: الحياة العقلية ص ٣٠٣، ٣٠٤.

(٢) أحمد بدوى: الحياة العقلية ص ٣٠٢.

(٣) القفطى: تاريخ الحكماء ص ٤٤٠.

(٤) ابن أبى أصيبعة: طبقات الأطباء جـ ٢ ص ٩٩.

(٥) ابن أبى اصيبعة: طبقات الأطباء جـ ٢ ص ١٠٠.

(٦) المقريزى: الخطط جـ ١ ص ٣٩١.

(٧) المقريزى: الخطط جـ ١ ص ٣٩٣.

يكن أحد منهما يؤلف كتابا ولا يبتدع رأيا إلا ويرد الآخر عليه[1] وكانت دراسة علم الطب غالبا ما تكون بالبيمارستان أو بدار العلم أو يقوم التلميذ بمصاحبة الطبيب الأستاذ والتتلمذ على يديه.

الرياضيات:

وتشمل علوم الحساب والجبر والهندسة وكانت هذه العلوم « يدرسها بعض خواص المتعلمين يومئذ كما أن الفقهاء، كانوا يدرسون الحساب والجبر لحاجتهم إليها فى علم الفرائض »[2] وممن قام بتدريس هذه العلوم فى مصر الحسن بن الهيثم الذى كان يلقى دروسه فى الجامع الأزهر. وكانت له تصانيف عدة فى هذه العلوم منها (تهذيب المجسطى) و(مصادرات إقليدس) و(استخراج أضلع المكعب) وقد بلغت مؤلفات ابن الهيثم نحو مائتى كتاب فى الرياضة والطبيعة والفلسفة وغيرها من العلوم[3]. ومن نوابغ هذا العصر أيضا أمية بن أبى الصلت الذى توصل إلى بعض قوانين الروافع واستخدم هذه القوانين فى محاولة رفع مركب محملة بالنحاس غرقت قريبا من الإسكندرية. وصنع لذلك بعض الآلات الهندسية لاستخدامها فى رفع الأثقال الموجودة بالمركب، ويبدو أن محاولته فشلت فحنق عليه الأفضل أمير الجيوش وأمر بحبسه ثم شفع فيه فأطلق سراحه[4].

ويذكر ابن العبرى أنه فى سنة ٥٣٠هـ (١١٣٥م) كان يشتغل بعلم الهندسة فى مصر المهندس أبو على المصرى وكان أديبا شاعرا غلبت الهندسة على بعض أشعاره[5].

---

(١) ابن أبى اصيبعة: طبقات الأطباء جـ٢ ص ١٠١، ص ١٠٥. انظر أحمد أمين: ظهر الإسلام جـ١ ص ٢٠٤، ٢٠٥.

(٢) أحمد بدوى: الحياة العقلية فى مصر ص ٢٩٩.

(٣) القفطى: أخبار الحكماء ص ١٦٥، ١٦٧ – ابن أبى اصيبعة: طبقات الأطباء جـ ٢ ص ٩٠ – أحمد أمين: ظهر الإسلام جـ ١ ص ٢٠٣، ٢٠٤ – جـ ٢ ص ١٩٣ – ١٩٤.

خطاب عطيه: التعليم فى مصر ص ١٣٢.

(٤) أحمد أمين ظهر الإسلام جـ ٢ ص ١٩٥، ١٩٦.

(٥) انظر: ابن العبرى: مختصر الدول ص ٣٥٦ ومن هذه الأشعار قوله:

تقسم قلبى فى محبه معشر بكل فتى منهم هوًى منوط
كأن فؤادى مركز وهم له محيط وأهواى لديه خطوط